

الهجرة للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني



يدولى من
مراجعة السيرة
النبوية الشريفة
أن الهجرة إلى
المدينة لم ينجي
عفواً ولا كانت
من وحى الساعة،
وإنما كانت خطة
حكمة التدبير طال
فيها التفكير بمد
أن أنجيه إليها

الدهن أنجاهاً طبيعياً أعانت عليه الحوادث

وكان النبي عليه الصلاة والسلام في أول الأمر يشير على
المسلمين الذين ضاقوا ذرعاً بما كانت قريش تنزله بهم من الأذى

وتجارب ومعرفة. وعلى الرغم من مرور كل هاتيك السنين لم تتقدم
غير خطوات قليلة في ميدان الرفق بالأطفال. فثلاثة أرباع أطفالنا
إما مصابون بداء الجهل والامية وهو أصل كل شقاء، وإما جياع
حفاة عمراء تنوح بهم الطرقات، وإما مرضى بأدواء شتى بسبب
إهمالهم وحرمانهم حتى من ماء الشرب النقي. وأخشى كثيراً أن
نظهر في مؤخرة الأمم في الحضارة والرفق إذا اعتبرنا مقياس
التقدم الحقيقي هو مبلغ تغفل مبادئ العطف والانسانية التي تقل
مظاهرها لدينا لسوء الحفظ

وفي ضوء هذه المآسي، ولشعورنا بما قدمنا وما أخرنا، يبدو
لنا الماضي عظيماً حقاً، فنتجه إليه باعجاب وخشوع، ونتحدث عن
آثاره حيناً من الدهر نشعر بمدى من راحة المعترف بالفضل
المقر بالذنب

أسرار فخرهمي

الأستاذة بمعهد التربية. درجة شرف في التاريخ
ودرجة الأستاذية في التربية من إنجلترا

أن يتفرقوا في الأرض، وينصح لهم أن يذهبوا إلى الحبشة ليأمنوا
الفتنة عن دينهم ويرتاحوا من العذاب الغليظ الذي كانت قريش
تصبه عليهم حتى يأذن الله بالفرج. وأكبر الظن أنه كان يريد أن
يؤمن هؤلاء المسلمين على دينهم من ناحية، وأن يحمل قريشاً على
التوجه من عاقبة هذه الهجرة الأولى إلى الحبشة عسى أن تقي
إلى الاعتدال والموادة. ومن الثابت على كل حال أن قريشاً
أزجتها هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة قبعت إلى النجاشي
برسولين منها ومعهما الهدايا ليقتنعه برد هؤلاء المهاجرين إلى مكة،
ولكني لا أظن أنه كانت لهذه الهجرة إلى الحبشة غاية أبعد من
ذلك، فإذ كانت أكثر من معاذ إلى حين، وتدير ألبات إليه الحاجة
لما اشتدت المحنة بالمسلمين، وتلوح لقريش بإمكان العون والمدد من
هذه الناحية. على أن بمد الحبشة واختلاف أهلها وانتمائها ودينها
ثم الثورة التي ما لبثت أن شبت على النجاشي وكان من أسبابها
إبواؤه المسلمين والعطف عليهم - كل هذا كان من شأنه أن
يصرف عن الحبشة ويدعو إلى التفكير فيما هو أصلح منها

واختلف الحال في مكة أيضاً إلى حد ما بعد أن أسلم عمر
ورفض الاستتار والاستخفاء، وشرع يناضل قريشاً ويدفع المسلمين
إلى الصلاة في الكعبة نفسها، وأسلم رجال غير قليلين من قريش،
فصارت لحاجة قريش في تمذيب المسلمين وتقتيلهم كما كانت تفعل
غير مأمونة العاقبة. نعم ظلت قريش تؤذى المسلمين وتسيء إليهم،
ولكن المسلمين كثروا وصار محمد يمرض نفسه على القبائل وإن
كان لم يفز بطائل كبير ولا كفت قريش عن مساءاتها إليه

وقد كبر الشأن واتسعت رقعة الأمل، ولكن التفكير في
أمر قريش وفي الراحة من عنهم وفي الوسائل المؤدية إلى نشر
الدين بأسرع مما ينتشر بقي واجياً ملحاً، ولا سيما بعد أن حوصر
المسلمون في الشَّعب، وتفضت الصحيفة، ومات أبوطالب وخديجة،
وإزداد أذى قريش، وردت القبائل عما كان يدعوها إليه من
الدخول في الإسلام؛ وتوالت السنون على هذا الحال، فكان من
الطبيعي أن يفكر النبي عليه الصلاة والسلام في مخرج حاسم يفرج
الكرب ويزيل المحنة ويفسح مجال الأمل ويوطئ الأمر. وأحسب
أن من الطبيعي والمعقول أن يفكر في يثرب أول ما يفكر، وأن
تكون هذه أبرز ما يبرز وأول ما يخطر على البال وأسبق ما يرد
على الخاطر، فقد كانت يثرب طريقه في الزمن السالف أيام كان

تفكير يبعث عليه ويوحى به واجب الدفاع عن النفس . يدل على ذلك أن النبي في العام التالي — لما قدم مكة عشرات من مسلمي يثرب — لقيهم واقترح أو طلب أن يقدم مع مسلمي يثرب حلفاً دفاعياً لرد عدوان المشركين . وقد تم له ما أراد وعقدت بيعة العقبة الثانية وهي أول تدير عملي في سبيل الدفاع عن النفس . وقد أزعج خبرها قريشاً جداً فاضطربت وأشفتت وذهبت تسي لتستوثق من الخبر ، فان صححة الخبر معناها ذهاب كل أمل في التغلب على النبي ... وقد بلغ من جزعهم من هذا الحلف وصحة تقديم لمواقبه المحققة أن قريشاً انتمرت بالنبي تريد تسله وديرت ذلك فعلا وأحكمت التدمير كما هو معروف مشهور ، فأدى ذلك إلى التعجيل بهجرة النبي نفسه

وقد كانت الهجرة في سبيل الله والدفاع عن النفس ولكنها أدت إلى أمور شتى . فقد كان النبي في مكة حسبه أن يتقأذى قريش ويتجلبد ويصبر على عنيتهم واضطهادهم ، فلا هاجر لم يبق لمثل هذا الصبر مسوغ ، ولا بالمسلمين إليه حاجة ، وقد كثروا وسارت لهم قوة من جموع الأنصار والمهاجرين معاً . ففى وسعهم أن يردوا الأذى بالأذى ويقابلوا المدوان بالمدوان . ثم إن كثرة المسلمين في يثرب جعلتهم جماعة يجب فضلا عن تقيفهم في الدين تنظيم أمورهم والنظر في مصالحهم وإقامة علاقاتهم بنسبهم على قواعد مرضية . وقد بدأ التشريع الاسلامى بعد الهجرة ، وبدأت كذلك الحروب باللسان ثم بالسلاح ، وبدأ العرض لتجارة قريش . ولا حاجة بنا إلى التفصيل فانه تاريخ معروف ؛ ويكفى أن تقول إن الهجرة أناحت للمسلمين أن يكونوا أمة ، وأن ينتظموا كما تنتظم الأمم ، وأكسبتهم مركزاً تسنى لهم بفضلهم أن يتحكموا في مكة اقتصادياً وحربياً أيضاً ؛ وقد انتهى الأمر بالفعل بفتح مكة وإعلاء كلمة الله

ويكفى للدلالة على ما كان للهجرة إلى يثرب من قيمة في التاريخ الإسلامى أنه لما أريد بعد ذلك تأريخ الحوادث أشار عمر ابن الخطاب رضى الله عنه باتخاذ عام الهجرة مبدأ لهذا التاريخ . والواقع أن هذه الهجرة كانت هي الباب الذى فتحة الله للنشر الدين وإعلاء شأنه والقضاء على الشرك والكفر ، وجعل من العرب أمة لها في العالم مقام وفي حياته أثر . ولو أن الهجرة كانت إلى الحبشة لما أثمرت شيئاً من هذا ، ولخرج الأمر على كل حال من جزيرة العرب ، ولكن الأراجيح ألا ينتقل العرب إلى حال أخرى .

يسمل في التجارة ، ولم تكن طريقه فقط . بل كانت له بها علاقة تجارة أيضاً ؛ وله فيها عدا ذلك بمض ذوى القربى ونسبى بهم أحوال جده من بنى النجار ؛ ثم إن أباه عبد الله بن عبد المطلب مدفون فيها ، وقد كانت أمه في حدائته تزور هذا القبر في كل عام ، وكانت تستصحب ابنها معها . وقد شاء القدر أن تمرض أمه وهي عائدة من إحدى هذه الزيارات وأن تموت وتدفن في الطريق بين مكة ويثرب . فإ من شك في أن يثرب كان لها نوبة بقلبه وعلوق بنفسه فإ يسمه أن ينسى طفولته ويتمه وأباه الدفين هناك وأمّه الراقدة في القلاة على طريقها

وقد كان النبي صلوات الله عليه يمرض نفسه على القادمين من يثرب كما كان يمرض نفسه على رجال القبائل الأخرى ، فأسلم أولاً من الأوس واحد ، ثم أسلم من الخزرج نفر استجابوا لدعوته وحدثوه بما بين الأوس والخزرج من العداوة التى يثبها اليهود فيهم ليظفروا بهم ويتحكموا فيهم . وكان اليهود قد نجحوا في إيقاد نار الفتنة بين هاتين القبيلتين ، ولكنهم نجحوا في أمر آخر لم يكونوا يقصدون إليه ، فقد كان اليهود وهم أهل كتاب يذمون إلى الأوس والخزرج ما هم فيه من الوثنية والشرك ويحدثونهم عن دينهم وكتابهم ، فتركوا في نفوسهم أثراً روحياً لم يكن لمثله وجود في أهل مكة . وقد عرف النبي عليه الصلاة والسلام هذا كله وعرف أيضاً أن الفريقين المتعادين — الأوس والخزرج — قد فطنوا إلى ما هم فيه من الشر ، وانتهوا إلى أن يجمعهم الله بعد طول العداوة ، وأدرك أن دعوته خليفة أن تلقى هناك من حسن الاصفاء وطيب القبول ما لا تظفر بمثله في مكان آخر وبلد غير يثرب . وقد صدق ظنه وفتحت القلوب في يثرب لدعوته ؛ ولم يمض إلا عام واحد حتى جاءه رجال من يثرب يبايعونه البيعة التى تعرف ببيعة العقبة الأولى على ألا يشركوا ولا يسرقوا ولا يزونا ولا يكذبوا ولا يعصوا الله . ومما يدل على قيمة هذه البيعة أن النبي احتاج أن ينفذ إلى يثرب من يقريء المسلمين بها القرآن ويملمهم ويتقهم في الدين . وكانت هذه فاتحة ميمونة لانتشار الاسلام في يثرب على صورة جديدة وفي نطاق واسع

وكان مقام المسلمين في يثرب طيباً محموداً لا أذى فيه ولا مشقة ، فقير معقول ألا يفكر النبي في اتخاذ يثرب مهجراً للمسلمين الذين يمانون الأوسيين في مكة ، ولنفسه أيضاً إذا كان لا بد من ذلك ولا معدى عن ذلك ... إن التفكير في ذلك هو